المكتبة الإشتراكية

جدانوف

حول تاريخ تطور الفلسفة







المكتبة الاشتراكية

جدانوف

حول تاريخ تطوّر الفلسفة



أيها الرفاق ،

ان المناقشة في كتاب الرفيق الكسندروف قدتجاوزت دائرة الجدل الاولية . فلقد تطورت من حيث الاتساع والعمق الى حد انها وضعت على بساط البحث القضاياالعامة المتعلقة بالحالة في الجبهة الفلسفية ، وانقلبت الى شبه مؤتر سوفياتي عام للمداولة في حالة البحث العلمي في الفلسفة . وواضح أن ذلك أمر طبيعي ومشروع تماما . فتأليف موجز شامل في تاريخ الفلسفة ، أول كتاب ماركسي من نوعه في هذا المضمار ، مهمة ذات شأن كبير علمي وسياسي . ولذلك لم يكن من باب الصدفة الاهتمام الذي صرفته اللجنة المركزية الى هذه المسألة حين أثارت المناقشة الحالية .

ان وضع موجز شامل في تاريخ الفلسفة ، معناه تسليح مثقفينا وملاكاتنا وشبيبتنا بسلاح فكري جديد جبار ، كما يعني في الوقت عينه التقدم بخطى كبيرة في طريق تطوير الفلسفة الماركسية اللينينية . فمن المفهوم اذاً ، لماذا تطلب الجميع هنا ، من هذا الكتاب ، مطالب جد عالية . ولذلك فان في توسيع نطاق المناقشة فائدة كبرى . ولا ريب في أن

النتائج ستكون أعظم كلما تجاوزنا المسائل المتعلقة بتقدير قيمة الكتاب وتعديناها الى مسائل أعم في العمل الفلسفي .

وسأسمح لنفسي أن أعالج الناحيتين . ولن أفكر أبدا بتلخيص المناقشة ، فتلك مهمة المؤلف . وسأكتفي بالاشتراك في سياق المناقشات . واني لأعتذر سلفا عن لجوئي الى استعمال الاستشهادات ، بالرغم من تنبيهات الرفيق باسكين العديدة . يقينا أن من السهل عليه ، وهو الملاح العتيق في خضم الفلسفة ، أن يمخر بحارها ومحيطاتها دونما حاجة الى منظار أو بوصلة ، معتمدا على تجاربه أو على حسه ، الا انني ، وأنا النوتي الحديث العهد في الفلسفة ، تطأ قدمه أول مرة سطح السفينة الفلسفية المائج في مهب عاصفة هوجاء استسمح اللجوء الى الاستشهادات لتكون شبه بوصلة تمكنني ان لا أضل الطريق .

وها أنا أنتقل الى المآخذ التي ابديت بصدد الكتاب .

١

نقاط الضعف في كتاب

الرفيق الكسندروف

أعتبر أن من حقنا أن نتطلب من كتاب في تاريخ الفلسفة مراعاة الشروط التالية ، التي هي في نظري أولية :

أولا ــ يجب أن يحدد فيه بالضبط موضوع تاريخ

الفلسفة ، من حيث هو علم .

ثانيا ــ ان يكون الكتاب علميا ، أي يجب أن تكون قاعدة ارتكازه ما حققته المادية الديالكتيكية والتاريخية في عصرنا من فتوحات .

ثالثا ــ من الضروري الا يكون عرضه مدرسيا جامدا ، بل ينبغي أن يأتي هذا العرض كعنصر فعال في عملية الخلق ، وأن يرتبط ارتباطا مباشرا بأهداف الساعة ، وأن يرسم المسالك التي يتوقع ان تنتهجها الفلسفة في تطورها اللاحق .

رابعا ــ أن تمحص الوقائع المذكورة فيه تمحيصا تاما .

خامسا ــ أن تكون طريقة العرض فيه واضحة ، مضبوطة ، ومقنعة .

اني أقول ان الكتاب لا يفي بهذه المتطلبات .

فمن حيث الموضوع ، قبل كل شيء ، يبين الرفيق كيفانكو أن كتاب الرفيق الكسندروف لا يبرز موضوع الدراسة بوضوح ، وان ليس فيه ، على الرغم من ايراده عددا كبيرا من التعاريف الجزئية ، تعريف عام جامع مانع . وهي ملاحظة في محلها تماما . فموضوع تاريخ الفلسفة لم يحدد . ان التعريف المورد في الصفحة ١٤ ناقص ، والتعريف المورد في الصفحة ٢٢ ، بحروف بارزة ، والمذكور على اعتباره تعريفا أساسيا ، خاطىء من حيث الجوهر . فلو كان يجب التسليم مع المؤلف بأن « تاريخ الفلسفة هو تاريخ التطور التدريجي التصاعدي لادراك الانسان للعالم الذي يحيط به » ،

لكان موضوع ذلك أن موضوعتاريخ الفلسفة مطابقلموضوع تاريخ العلم بصورة عامة ، وان الفلسفة نفسها في هذه الحال تبدو كأنها علم العلوم ، الامر الذي دحضته الماركسية منذ زمن طويل .

المادية ضد المثالية

وغير صحيح أيضا ولا مضبوط تأكيد المؤلف أن تاريخ الفلسفة يبدو بمثابة تاريخ لولادة الكثير من الافكار المعاصرة وتطورها . فلو صح ذلك لأصبح لكلمة « معاصر » وكلمة « علمي » مفهوم واحد ، وهو خطأ بالطبع . ان تعريف موضوع تاريخالفلسفة يجببالضرورة أنيشتقمن تعاريف العلم الفلسفي التي أوردها ماركس وانكلز ولينين وستالين .

« هذا الوجه الثوري من فلسفة هيغل هو الذي استخلصه ماركس وطوره . ان المادية الديالكتيكية « ليست بحاجة الى فلسفة تضع نفسها فوق العلوم الاخرى » . فهي تحتفظ من الفلسفات السابقة ب « درس الفكر وقوانينه ــ أي بالمنطق الصوري والديالكتيك » . ولكن الديالكتيك برأي ماركس ، وهو في ذلك متفق مع هيغل ، يشمل ما يسمى اليوم نظرية المعرفة ، أو علم المعرفة gnoséologie التي ينبغي لها هي أيضا أن تنظر الى موضوعها نظرة تاريخية ، وذلك بأن تدرس وتحدد منشأ المعرفة وتطورها والانتقال من اللامعرفة الى المعرفة » .

(لينين ــ المؤلفات الكاملة ــ المجلد ١٨ ، ص ١١)

ان تاريخا علميا للفلسفة هو اذن تاريخ ولادة الفهم المادي العلمي للعالم وقوانينه ، وتاريخ ظهور هذا الفهم وتطوره . ولكون المادية قد نمت وتطورت في النضال ضد التيارات المثالية ، نجد أن تاريخ الفلسفة هو أيضا تاريخ النضال بين المادية والمثالية (١) .

أما من حيث صفة الكتاب العلمية ، ومن حيث استخدامه النتائج الحالية التي أعطتها المادية الديالكتيكية والتاريخية ، فتشوبه في هذا الميدان أيضا نواقص عديدة وخطيرة .

ثورة في الفلسفة

يتصور المؤلف تاريخ الفلسفة وتقدم الافكار والانظمة الفلسفية كتطور منظم بتراكم التغيرات الكمية . فهو

---

(١) ــ المثالية في الفلسفة تشمل ، على وجه الاجمال ، جميع المذاهب الفلسفية التي تعتبر ان « الفكرة المطلقة » أو « العقل الكلي » أو «الشعور» هي العنصر الاول والاقدام ، أو تقول ان للفكر أو الشعور وجودا مستقلا عن المادة . وهناك مذاهب فلسفية مثالية تنكر مادية الطبيعة ، وتنكر ان للمادة وجودا مستقلا عن الادراك والشعور ، كما أن هناك مذاهب فلسفية مثالية تنكر امكان معرفة العالم ولا تعترف بقيمة العلم ومعارفنا العلمية ، أو تقول بأن العقل البشري لا يستطيع ادراك ماهية الموجودات .

وغني عن القول أن المثالية من حيث معناها العلمي الفلسفي ، المتقدم شرحه ، تختلف اختلافا أساسيا عن «المثالية» بمعناها الشائع المتداول الذي يعني عادة «الطموح الى مثل أعلى » أو « احتقار المادة والترفع عنها » ، وما الى ذلك ــ (المعرب) .

يخلق الشعور بأن الماركسية انما ظهرت كمكمل فقط للمذاهب التقدمية السابقة ، وفي مقدمتها المادية الفرنسية والاقتصاد السياسي الانكليزي ومدرسة هيغل المثالية .

ويقول المؤلف في الصفحة ٤٧٥ ، ان النظريات الفلسفية التي تكونت قبل ماركس وانكلز ، مع انها احتوت اكتشافات كبرى في بعض الاحيان ، لم تكن قط مع ذلك أمينة مع نفسها الى النهاية وعلمية في جميع استنتاجاتها . ان مثل هذا التعريف لا يميز الماركسية عن سائر الانظمة الفلسفية التي سبقتها الا بكونها نظرية أمينة مع نفسها الى النهاية ، وعلمية في جميع استنتاجاتها . وبذلك ينحصر الفرق بين الماركسية وبين النظريات الفلسفية التي سبقتها ، في أن هذه النظريات لم تكن حتى النهاية أمينة مع نفسها وعلمية ، وان الفلاسفة القدماء « قد أخطأوا » ، لا أكثر .

فكما ترون ، ليست المسألة هنا سوى مسألة تغيرات كمية . ولكن هذا من الميتافيزيك(١) . لقد كان ظهور الماركسية اكتشافا حقيقيا ، بل ثورة في الفلسفة . ومن الواضح أن هذا الاكتشاف ، ككل اكتشاف آخر ، وكل قفزة ، وكل انقطاع في التقدم ، وكل انتقال الى حالة

---

(١) ميتافيزيك : تعني حرفيا « ماوراء الطبيعة » . وهي طريقة في التفكير الفلسفي تنكر الروابط بين الاشياء والحوادث ، وتنظر اليها منفصلا بعضها عن بعض ، وتعتبر الطبيعة والمجتمع في حالة جمود واستقرار . فحركة التطور في نظرها حركة نمو بسيطة ، أو تكرار وتراكم للحوادث نفسها ـ (المعرب) .

جديـدة ، لم يكن يمكن أن يحدث دون تراكـم سابـق في التغـيرات الكمية ، ـ أي ، في الحـال التي نحن بصددها ، بدون ما أتت به من الفلسفة قبل اكتشاف ماركس وانكلز . وانه لواضح أن المؤلف لا يفهم ان ماركس وانكلز قـد أسسا فلسفة جديدة ، تختلف من الناحية الكيفية عن جميع الانظمة السابقة مهما تكن تقدمية . انعلاقات فلسفة ماركس بجميع الفلسفات التي سبقتها ، والثـورة التي أحدثتها الماركسيـة في الفلسفة بجعلها اياها علما ، معروفة تمام المعرفة . ولذلك يزيد غرابة الموقف الذي يقفه المؤلف ، كونه يمركز انتباهـه لا على ما جلبته الماركسية من جديد وثوري بالنسبة الـى الانظمة الفلسفية السابقة ، بـل علـى ما يربط الفلسفـة الماركسية بالفلسفات التي سبقتها . مع أن ماركس وانكلز نفسهما كاناقدصرحا اناكتشافاتهماتعنينهايةالفلسفةالقديمة .

« لقد كان نظام هيغل آخر واكمل شكل للفلسفة من حيث نعتبرها عاما قائما على حدة ويهيمن علـى سائر العلوم . وحين غرق هذا النظام ، غرقت معـه كل الفلسفة ، ولم يبق منها سوى طريقـة التفكـير الديالكتيكية ومفهوم العالم بأسره : الطبيعي والتاريخي والفكري ، من حيث هو عالم آخذ منذ الابد في حركـة متواصلة وتغير متواصل ، وخاضع لعمليةولادة و فناء دائمـة . وواجب اكتشـاف قوانين هـذه العمليـة المتواصلة ، عملية التجدد ، في كل ميدان بذاته ، لـم

يعد اليوم يقع على الفلسفة وحدها ، بل يقع على جميع العلوم . تلك هي خلاصة التراث الذي تركه هيغل الى احلافه » . (انكلز : كتاب انتي دوهرينغ ، طبعة ١٩٤٥ ، ص ٢٣ — ٢٤) .

الماركسية ونهاية الفلسفة القديمة

ويظهر بوضوح أن المؤلف لا يفهم سير تطور الفلسفة ، الذي هو سير تاريخي ملموس .

ان احد مواطن الضعف الجوهرية في الكتاب ، أن لم يكن اهمها ، هو الجهل بالحقيقة التالية : ليست طريقة النظر الى هذه أو تلك من المسائل الفلسفية هي التي تغيرت وحدها خلال التاريخ ، بل لقد تغيرت أيضا نفس دائرة هذه المسائل ، وموضوع الفلسفة نفسه قد خضع الى تحول متواصل ، الامر الذي يتفق كل الاتفاق مع الطبيعة الديالكتيكية للمعرفة الانسانية ، والذي يجب أن يكون واضحا لكل من هو ديالكتيكي حقيقي .

فقد كتب الكسندروف في الصفحة ٢٤ من كتابه ، أثناء عرضه الفلسفة اليونانية القديمة : « ان الفلسفة المفهومة كميدان مستقل من ميادين المعرفة ، قد ظهرت في المجتمع العبودي ، في اليونان القديمة » . وكتب في مكان آخر : « أن الفلسفة التي ظهرت في القرن السادس قبل الميلاد كميدان مستقل من ميادين المعرفة ، انتشرت انتشارا واسعا » .

ولكن هل يمكننا الكلام عن الفلسفة اليونانية القديمة كميدان منفصل متميز من ميادين المعرفة ؟ كلا دون ريب . لقد كانت افكار اليونانيين الفلسفية شديدة الارتباط بأفكارهم السياسية وبنظراتهم في علوم الطبيعة ، الى حد اننا لا يحق لنا أن نعزو الى العلم اليوناني تقسيمنا للعلوم الذي ظهر بعد ايامهم ، ولا تصنيفنا لها . والحق ان اليونانيين لم يعرفوا سوى علم واحد ، غير متميز ، يشمل أيضا مفاهيم فلسفية . فديموقريط وابيقور وارسطو يؤكدون جميعهم بنفس النسبة فكرة انكلز القائلة :

« ان الفلاسفة اليونانيين القدماء كانوا في نفس الوقت علماء طبيعة » . (انكلز — ديالكتيك الطبيعة) .

والذي يميز تطور الفلسفة هو انه ، بالاستناد اليها ومع اتساع المعلومات العلمية عن الطبيعة والمجتمع ، نشأت وتكاثرت العلوم الوضعية واحدا بعد آخر . وعليه ، فان ميدان الفلسفة قد ضاق بصورة مستمرة وتبعا لاتساع العلوم الوضعية (ولنقل مع ذلك أن هذه العملية لم تنته بعد ، حتى في الوقت الحاضر) وهذا الانعتاق ، انعتاق علوم الطبيعة والعلوم الاجتماعية ، يشكل تقدما لهذه العلوم وللفلسفة ذاتها في نفس الوقت .

ان خالقي الانظمة الفلسفية السالفة الذين كانوا يسعون الى معرفة الحقيقة المطلقة ، لم يستطيعوا بالنتيجة أن يساهموا في تطور علوم الطبيعة ، لانهم كانوا يجردونها من

الحياة ويحنطونها في مخططاتهم ، وينزعون الى التحليق فوق العلم ، ويفرضون على الادراك البشري الحي استنتاجات تمليها عليهم مقتضيات نظامهم الفلسفي ولا تمليها الحياة الواقعية . بهذا كانت الفلسفة تتحول الى متحف تتكدس فيه الوقائع والاستنتاجات ، والفرضيات المختلفة أشد الاختلاف ، والاوهام الساذجة . واذا كانت الفلسفة قدظلت، مع ذلك، صالحة لتوجيه الفكر وللاجتهادات النظرية ، فقد كانت غير صالحة كأداة للتأثير على العالم تأثيرا عمليا ، ولا كأداة لمعرفة العالم .

وآخر الانظمة التي من هذا النوع ، كان نظام هيغل الذي حاول أن يشيد بناء فلسفيا يخضع جميع العلوم الاخرى له ، ويرغمها على الرضوخ الى مقاييس تصنيفاته . وبأمل أن يحل جميع التناقضات، وقع هو نفسه في تناقض أساسي مع الطريقة الديالكتيكية التي كان هيغل ذاته قد أحس بها دون أن يفهمها ، والتي كان بالتالي يطبقها تطبيقا خاطئا .

« منذ ان فهمنا ان مطالبة الفلسفة بأن تحل جميع التناقضات تعني مطالبة فيلسوف واحد بما كان يمكن ان تحققه الانسانية بأسرها في تطورها التقدمي ، منذ ان فهمنا ذلك ، قضي على الفلسفة ، بالمعنى القديم لهذه الكلمة . اننا نترك « الحقيقة المطلقة » وشأنها ، تلك الحقيقة التي لايمكن الوصول اليها لا بهذه الطريقة ولا على يد رجل منفرد، ونبذل جهدنا للوصول الى حقائق

نسبية يمكننا التوصل اليها عن طريق العلوم الوضعية ، ولربط نتائج هذه الحقائق بواسطة الطريقة الديالكتيكية» (انكلز : لودفيغ فورباخ) .

ان اكتشافات ماركس وانكلز تمثل نهاية الفلسفة القديمة ، أي نهاية الفلسفة التي كانت تهدف الى تفسير العالم تفسيرا عاما شاملا .

فلسفة علمية للبروليتاريا

ان صيغ المؤلف الغامضة تخفي ما للاكتشاف العبقري الذي جاء به ماركس وانكلز من أهمية ثورية عظمى ، حين تبرز ما يربط ماركس بالفلسفات السابقة دون أن تبين أن ماركس قد افتتح في تاريخ الفلسفة مرحلة جديدة تماما ، مرحلة الفلسفة العلمية .

وترتبط بهذا الخطأ أشد الارتباط طريقة الكتاب غير الماركسية التي يتناول بها تاريخ الفلسفة كما لو كان تاريخ حلول مدرسة جديدة مكان أخرى قديمة . وهكذا ، ان ظهور الماركسية كفلسفة علمية للبروليتاريا قد ختم المرحلة القديمة من تاريخ الفلسفة ، التي كانت الفلسفة فيها شغل أفراد منعزلين وملكا لمدارس مؤلفة من عدد ضئيل من الفلاسفة والاشياع المنقطعين عن العالم الخارجي ، والمنفصلين عن الحياة والشعب ، بل الغرباء عن الشعب .

الماركسية ليست مدرسة فلسفية من هذا النوع . بل على العكس من ذلك ، تبدو خطوة الى أمام بالنسبة الى الفلسفة القديمة حين كانت هذه الفلسفة من خصائص بعض المختارين ، ومن خصائص ارستوقراطية الفكر ، كما تبدو فاتحة لمرحلة جديدة كل الجدة اصبحت الفلسفة فيها سلاحا علميا بين أيدي الجماهير البروليتارية المناضلة من أجل تحررها .

خلافا للانظمة الفلسفية السابقة ، لا تظهر الفلسفة الماركسية في شكل علم يسيطر على العلوم الاخرى ، بل تأتي كأداة للاستقصاء العلمي ، وطريقة تنفذ الى أعماق جميع العلوم الطبيعية ، وتغتني بما تأتي به هذه العلوم خلال تطورها . وبهذا المعنى تبدو الفلسفة الماركسية نفيا مطلقا وتاما جدا لجميع الفلسفات السابقة . ولكن النفي ، كما يلاحظ انكلز ، لا يعني فقط قول كلمة لا . انه يفرض تتابع جميع الافكار الطليعية لجميع الانتصارات التقدمية التي تحققها الانسانية في مجرى تاريخها ، كما يعني هضمها والبحث النقاد فيها وتوحيدها جميعا في تركيب أعلى .

يستنتج من ذلك انه ما دامت الطريقة الديالكتيكية الماركسية قد وجدت ، فعلى تاريخ الفلسفة ان يتضمن تاريخ تكوين هذه الطريقة ، وأن يبين الظروف التي سببت ظهورها . ولكننا لا نجد في كتاب الكسندروف تاريخ المنطق والديالكتيك . ولم نتبين فيه عملية تطور التصنيفات المنطقية ، من حيث هي انعكاس للتجربة البشرية . ان المؤلف لم يستفد من

استشهاده في مدخل كتابه يقول لينين : « كل صنف من أصناف المنطق الديالكتيكي يجب أن يعتبر بمثابة عقدة في تاريخ الفكر البشري » ، فان استشهاده هذا لم يجد في سياق الكتاب دعما له .

وليس هناك ، في أي حال ، ما يبرر وقوف الكتاب عند ولادة الماركسية ، أي عند عام ١٨٤٨ . فكتاب لايعرض تاريخ الفلسفة خلال المائة سنة الاخيرة لايستحق بالتأكيد ان يحمل اسم كتاب في تاريخ الفلسفة . ولا يزال الغموض يكتنف السبب الذي حدا بالمؤلف الى اهمال هذه الحقبة اهمالا لا رحمة فيه ، ولا تفسير له لا في مقدمة الكتاب ولا في مدخله .

وليس هناك أيضا ما يبرر اهمال الكتاب تاريخ الفلسفة الروسية . ولا حاجة لتبيان ان مثل هذا السكوت ينتقص من مبادىء الكتاب نفسها . فمهما تكن الدوافع التي حدت بالمؤلف الى استبعاد تاريخ الفلسفة الروسية من كتاب في التاريخ العام للفلسفة ، فان هذا السكوت وحده يعني ، موضوعيا ، تصغير دور الفلسفة الروسية ، وفصل تاريخ الفلسفة فصلا مصطنعا الى تاريخ فلسفة غربية وتاريخ فلسفة روسية ، وذلك دون أدنى محاولة من المؤلف لتبرير صرورة مثل هذا التقسيم الذي يعمل على استمرار التقسيم البورجوازي القائل بوجود ثقافة « غربية » وثقافة « شرقية » ، هذا التقسيم الذي يعتبر الماركسية تيارا اقليميا خاصا بـ « الغرب » . والغريب أن

المؤلف يدافع بحرارة ، في الصفحة ٦ من مدخل الكتاب ، عن الموقف المعاكس لهذا الموقف ، مؤكدا بالحاح انه « يستحيل علينا أن نكون فكرة علمية عن تطور الفكر الفلسفي في بلدان أوروبا الغربية اذا نحن لم ندرس الانظمة الفلسفية القديمة بانتباه ، ولم نستخدم ما وجهه اليها الفلاسفة الكلاسيكيون الروس من نقد عميق » . لماذا اذن لم يتمسك المؤلف في كتابه بهذا الموقف الصائب ؟ ان سلوكا كهذا يبقى غير مفهوم أبدا ، كما أن وقف البحث دون سبب عند سنة ١٨٤٨ يترك في نفس الوقت أثرا مزعجا .

وقد لاحظ بعض الرفاق ان المدخل الذي يجب طبعا ان يظهر « عقيدة » المؤلف ، يحدد المهمات وطرق البحث ، ولكن المؤلف لم يقم نوعا ما بتعهداته . وانا اعتبر هذا النقد غير كاف ، لاسيما والمدخل نفسه مغلوط ولايثبت في وجه الانتقاد .

في سبيل موقف حزبي في الفلسفة

لقد تكلمت عن الاخطاء والاغلاط في تعريف موضوع تاريخ الفلسفة . ولكن ليس هذا كل شيء . فهناك فوق ذلك أخطاء نظرية أخرى في مدخل الكتاب . لقد سبق لبعض الرفاق هنا أن قالوا ان المقاطع المأخوذة من تشرنيشفسكي ودوبروليوبوف ولومونوسوف تحشر عنوة في تضاعيف عرض أسس التاريخ الماركسي اللينيني ، مع انها لا علاقة لها مباشرة

بالموضوع كما هو واضح . بيد أن المسألة ليست هنا ، بل في كون الاستشهادات المأخوذة من هؤلاء العلماء والفلاسفة الروس الكبار أختيرت اختيارا سيئا ، وفي كون المواقف النظرية التي تعبر عنها هذه الاقوال مغلوطة من وجهة النظر الماركسية ، بل أستطيع القول انها ضارة أيضا . ليس لدي أقل نية في التقليل من قيمة أصحاب هذه الاستشهادات المختارة بصورة كيفية والمتعلقة بآراء لا علاقة لها أبدا بما يرمي اليه المؤلف . ان المهم في نظري هو ان المؤلف يستشهد بتشرنيشفسكي لكي يبين انه يجب على مؤسسي الانظمة الفلسفية المختلفة ، وحتى المتناقضة فيما بينها ، أن يكونوا أكثر تساهلا ، واحدهم تجاه الآخر .

اسمحوا لي بأن أسرد عليكم نص الاستشهاد المأخوذ عن تشرنيشفسكي . يقول : « ان الذين يكملون عملا علميا ينتصبون ضد أسلافهم الذين كانت ابحاثهم نقطة البدء في نفس أبحاث هؤلاء المكملين . كذلك كان أرسطو ينظر الى أفلاطون نظرته الى عدو ، وكذلك كان سقراط يقدح بالسفسطائيين الذين يمشي هو على غرارهم . وبوسعنا اليوم أن نجد أمثلة أخرى كثيرة . ولكن تأتي أحيانا حالات تدخل العزاء الى القلوب ، حين نرى مؤسسي نظام جديد يفهمون بوضوح صلة افكارهم بأفكار اسلافهم ، ويسمون انفسهم بكل تواضع تلاميذ لهم ، ويعترفون علنا بالقسط العظيم الذي ساهم به هؤلاء الاسلاف في تطور أفكارهم هم ، في نفس الوقت الذي يكشفون فيه

الستار عن نقص مفاهيم الاسلاف . كذلك مثلا كان موقف سبينوزا من ديكارت . وينبغي أن نذكر لمؤسسي العلم المعاصر ، انهم ينظرون الى أسلافهم باحترام بل وبحب الابناء للآباء ، وانهم يقرون كل الاقرار بعظمة عبقرية الاسلاف ونبل صفات تعاليمهم التي يظهر التابعون فيها نواة مفاهيمهم الخاصة » . (ص ٦ و ٧ من كتاب الكسندروف) .

ولما كان المؤلف قد استشهد بهذه الفقرة دون تعليق ، فمن الواضح انها تمثل وجهة نظره الخاصة . فاذا كان الامر كذلك ، كان من الجلي انه يسير في طريق انكار مبدأ الموقف الحزبي في الفلسفة ، ذلك المبدأ الجوهري في الماركسية اللينينية . كل منا يعلم ما تميزت به اللينينية من اندفاع وتصلب في المعارك الضارية التي لم تكف قط عن خوضها ضد جميع أعداء النظرية المادية . في هذه الحرب ، يسلط الماركسيون اللينينيون على خصومهم انتقاداً لا يعرف الهوادة . وسيظل كتاب لينين «المادية والنقد التجريبي» مثلا للنضال البولشفي ضد خصوم الماركسية ، فكل كلمة فيه لها وقع السيف البتار .

يقول لينين : « ان عبقرية ماركس وانكلز هي في كونهما قد طورا المادية خلال حقبة طويلة ــ تقارب نصف قرن ــ وتقدما في اتجاه فلسفي أساسي ، دون ان يراوحا مكانهما بتكرار ما تمّ حله من قضايا المعرفة ، وفي كونهما قد طبقا بأمانة هذه المادية نفسها ــ وبينا كيف يجب أن تطبق ــ تطبيقا منطقيا على العلوم

الاجتماعية ، كانسين دون شفقة ، كالغبار والاوهام ، تلك الفلسفة المغرورة المنفوخة التي طلع بها علينا عدد لا يحصى من محاولات « اكتشاف » خطة فلسفية « جديدة » واختراع اتجاه « جديد » الخ ... »

ويقول بعد ذلك : « وأخيرا خذوا ملاحظات ماركس المختلفة في كتاب « رأس المال » وفي مؤلفاته الاخرى ، تجدوا موضوعا أساسيا لايتبدل، فهو يتمسك بالمادية وليس عنده سوى التهكمات الاحتقارية على جميع المذاهب التشويشية وجميع التساهلات مع المثالية . وفي هذه المعارضات الاساسية تنحصر كل ملاحظات ماركس الفلسفية ، كما أن هذا « الانحصار » لديه ، وهذا «التصلب» هما اللذان تعتبرهما الفلسفة الجامعية نقطة الضعف في هذه الملاحظات » (لينين : المؤلفات الكاملة ـ المجلد ١٣ ، ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦) .

ولينين نفسه ، كما هو معلوم ، لا يوفر خصومه . ان محاولة اخفاء وحل التناقضات بين الاتجاهات الفلسفية لم تكن في نظر لينين سوى مناورة من مناورات الفلسفة الجامعية الرجعية . فكيف يمكن للرفيق الكسندروف ، بعد هذا ، أن يتقدم في كتابه كداعية للنعومة والتساهل ازاء خصومنا في الفلسفة ، حين يساهم في الموضوعية الجامعية المزعومة ، لاأكثر ولا أقل ، في حين ولدت الماركسية وكبرت وانتصرت في معمعان نضال لا شفقة فيه ضد جميع ممثلي النزعة المثالية ؟

ولم يقف الرفيق الكسندروف عند هذا الحد . فان مفاهيمه المبنية على الموضوعية تبرز بصورة متماسكة من أول الكتاب الى آخره . والواقع ان ليس من قبيل الصدفة ان الرفيق الكسندروف ، قبل أن ينتقد أصغر فيلسوف بورجوازي، يقدم واجب « الاحترام » لمزاياه ، ويحرق أمامه بخور المديح. خذوا مثلا مذهب فوريه عن الادوار الاربعة لتطور البشرية ، وقد سبقت الاشارة الى هذا المذهب في مناقشاتنا .

يقول الكسندروف ان الفتح الكبير في اشتراكية فوريه « هو مذهب تطور البشرية . فالمجتمع يمر ابان تطوره ، كما تقول نظرية فوريه ، بأربعة أدوار : الاول : تفكك تصاعدي . الثاني : انسجام تصاعدي . الثالث : انسجام انحداري . الرابع : تفكك انحداري . وفي الدور الاخير تمر البشرية في مرحلة شيخوخة تنتهي بعدها كل حياة على الارض . ومادام تطور المجتمع يجري مستقلا عن ارادة الناس ، فالدور الاخير لا بد أن يأتي كما لا بد أن تتغير الفصول . ويستنتج فوريه من هذا المبدأ انه لا بد للنظام البورجوازي من ان يتحول الى مجتمع تسود فيه حرية العمل التعاوني . وفي الحقيقة كانت هذه النظرية محدودة في نطاق الادوار الاربعة ولكنها كانت تمثل في وقتها خطوة كبرى الى الامام » . (الكسندروف تاريخ الفلسفة الغربية ــ ص ٣٥٣ ــ ٣٥٤).

هنا أيضا لا يوجد أثر للتحليل الماركسي . بالنسبة الى أي شيء تعتبر نظرية فوريه خطوة الى أمام ؟ اذا كان ضيق

نظرها يقوم على كونها تتكلم عن اربعة أدوار في تطور البشرية يشكل الدور الرابع منها تفككا انحداريا تنتهي بنهايته كل حياة على الارض ، كيف يمكن أن نفهم شكوى المؤلف حين يأخذ على فوريه حصره تطور المجتمع بنظام يتألف من أربعة ادوار في حين أن الدور الخامس لا يمكن أن يكون بالنسبة للبشرية سوى حياة الآخرة ؟

ان الكسندروف يجد دائما مناسبة لقول كلمة طيبة عن جميع الفلاسفة القدماء تقريبا . وكلما كان الفيلسوف البورجوازي رفيع المقام زاد في حرق البخور أمامه . وهذا كله يؤدي الى ان الرفيق الكسندروف يظهر ، ولعله دون أن يشعر ، بمظهر عبد لمؤرخي الفلسفة البورجوازيين الذين من مبدأهم ان يروا زميلا لهم في كل فيلسوف ، قبل كل شيء ثم بعد ذلك فقط يرونه خصما . فاذا قدر لمثل هذه المفاهيم ان تتطور لدينا ، فستؤدي بنا حتما الى المذهب الموضوعي، والى موقف الذلة تجاه الفلاسفة البورجوازيين ، والى المبالغة في تقدير مزاياهم ومواهبهم ، والى تجريد فلسفتنا من روحها النضالية والهجومية . وذلك معناه الانحراف عن المبدأ الاساسي في المادية ، أي عن الموقف الحزبي فيها ، مع أن لينين قد علمنا :

« ان المادية تفرض الموقف الحزبي ، لانها في تقدير كل حادث تجبر على الانحياز صراحة ودون مواربة الى وجهة نظر فئة اجتماعية معينة » . (لينين : المؤلفات

الكاملة ــ المجلد الاول ، ص ٢٧٦) .

ان عرض الافكار الفلسفية في الكتاب يسير بطريقة مجردة ، نزاعة الى الموضوعية ، وحيادية . والمدارس الفلسفية تظهر فيه الواحدة تلو الاخرى ، والواحدة جنب الاخرى ، ولكنها لا تظهر في نضال ، الواحدة مع الاخرى . وهذا « تكريم » للاتجاه الاكاديمي أيضا ، و « للنزعة » الجامعية . ففي هذه الظروف ، نجد أن فشل المؤلف فشلا تاما في عرض الموقف الحزبي في الفلسفة ليس من باب الصدفة . وكمثال على الموقف الحزبي في الفلسفة ، يذكر المؤلف فلسفة هيغل ، ويضرب مثلا على نضال الفلسفات المتعارضة ، الصراع بين المبداين الرجعي والتقدمي ، في صميم ... هيغل ذاته . ان مثل هذه الطريقة في العرض ليست نوعا من مذهب الاختيار الموضوعي (أي الجمع بين « أحسن » ما في الفلسفات المتعارضة ــ المعرب) وحسب ، بل هي أيضا تجميل لهيغل بمقدار ما يراد ، بهذه الواسطة ، اظهار ان فلسفته تتضمن من العناصر التقدمية مقدارا يساوي لما تتضمنه من العناصر الرجعية . وللانتهاء من هذا الموضوع سأضيف أيضا ان الطريقة التي يوصي بها الكسندروف للحكم على مختلف الانظمة الفلسفية ــ كقوله : « الى جانب المزايا توجد مواطن ضعف » أو « ومثل هذه النظرية لها كذلك أهمية كبرى » ــ ان هذه الطريقة تتردى في أقصى درجات الغموض وعدم الدقة ، وتبدو ميتافيزيكية صرفة ، وصالحة فقط لتشويش الموضوع

فما الذي أوجب على الكسندروف ان يقدم شعائر الاحترام للتقاليد الاكاديمية في المدارس البورجوازية القديمة ، وان ينسى مبدأ الماركسية الاساسي الذي يتطلب عدم مهادنة الخصم ؟ ذلك أيضا يظل أمراً لا تفسير له .

معرفة استخدام الطريقة المادية الديالكتيكية

هناك ملاحظة أخرى . فالدراسة الانتقادية للانظمة الفلسفية يجب أن تكون موجهة . ان الافكار الفلسفية التي ماتت ودفنت منذ زمن بعيد لا تستحق كثيراً من الاهتمام . أما الانظمة والافكار التي لا تزال رغم صفتها الرجعية سارية المفعول ويستخدمها اليوم أعداء الماركسية ، فيجب ، على العكس من تلك ، ان يوجه اليها الانتقاد وبعنف خاص . هذا هو حال الكانتية (مذهب كانت ــ المعرب) الجديدة ، واللاهوت ، والاشكال القديمة والحديثة من اللا أدرية (وهي المذهب القائل بعدم امكان بلوغ الحقائق المطلقة ــ المعرب) ، كما هو أيضا حال الجهود لادخال الآلة خلسة في العلوم الطبيعية المعاصرة ، وحال جميع المطابخ الاخرى التي تهدف الى تزويق البضاعة الميتافيزيكية البالية ، وترتيبها حسب متطلبات السوق . تلك هي الاسلحة التي يضعها في التداول اليوم اجراء الاستعمار الفلسفيون ، بغية دعم سيدهم المتضعضع .

والمبادىء الاولية المعروضة في المدخل ، عن رجعية او تقدمية الافكار والانظمة ، ليست أقل خطأ . فعلى الرغم

من أن المؤلف يبدي بعض التحفظ حول الرأي القائل : ان الصفة الرجعية او التقدمية لفكرة او لنظام ما ، تتعلق بالظروف التاريخية المعينة ، على الرغم من ذلك نجده يلزم الصمت الدائم عن الراي الماركسي المشهور القائل : ان نفس الفكرة في ظروف تاريخية مختلفة ، يمكن ان تكون رجعية وتقدمية في الآن نفسه . وحين حذف المؤلف هذه المسألة ، فتح بذلك ثغرة يتسلل منها المفهوم المثالي القائل باستقلال الافكار عن التاريخ .

وفي مكان آخر ، بعد ان لاحظ المؤلف ، بحق ، ان تطور الفكر الفلسفي تحدده اولا وآخراً الشروط المادية للحياة الاجتماعية ، وان ليس له سوى استقلال نسبي ، يخرج هو نفسه اكثر من مرة عن هذا المبدأ الاساسي في المادية العلمية ، حين يفصل دائماً عرض الانظمة المختلفةعنالظروفالتاريخية الملموسة ، وعن الاساس الطبقي لهذه او تلك من الفلسفات . هذا هو الحال مثلا في عرض افكار سقراط وديموقريط وسبينوزا ولايبنيتز وفورباخ الفلسفية . وواضح ان ذلك ليس اسلوباً علمياً ، وهو يحمل على الاعتقاد بأن المؤلف ينقاد الى بحث تطور الافكار الفلسفية بصورة مستقلة عنالتاريخ، وهي علامة فارقة للمثالية . ويظهر انعدام الروابط العضوية بين نظام فلسفي ما ، وبين الظروف التاريخية الملموسة ، عندما يحاول المؤلف تحليل هذه الظروف . فلا نجد اذ ذاك سوى رابطة آلية وشكلية محضة ، وليست عضوية بالمعنى

الصحيح . فالابواب والفصول المخصصة للمفاهيم الفلسفية في عصر من العصور ، والابواب والفصول المخصصة لعرض الظروف التاريخية المقابلة لها ، تتوارى وتتساير بصورة سطحية . ولكن نفس عرض الظروف التاريخية والعلاقات السببية بين القاعدة وبين التركيب الاعلى بوجه عام ، ليس عرضاً علمياً ، بل هو امر مهمل ، ولا يقدم عناصر للتحليل ، وانما يعطي بضع نقاط ارشادية رديئة . هذه هي الحال مثلا في مدخل الفصل السادس الذي يحمل عنوان « فرنسا في القرن الثامن عشر » . فهو آية في الغموض ، ولا يلقي أي نور على مصادر الفلسفة الفرنسية في القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر . وهذا نقص افقد افكار الفلاسفة الفرنسيين كل صلة بعصرها وجعلها تبدو كحدث مستقل . اسمحوا لي ان اذكركم بهذا المقطع من الكتاب :

«منذ القرنين السادس عشر والسابع عشر ، شهدت فرنسا بعد انكلترا امتداد البورجوازية المطرد ، من جراء ما طرأ عليها خلال القرن من تغيرات اساسية ، اقتصادية وسياسية وفكرية . ومع أن البلاد كانت لا تزال متأخرة ، فقد بدأت تنفض عنها الغلاف الاقطاعي القديم . وككثير من الدول الاوروبية الاخرى ، دخلت فرنسا في ذلك العهد في المرحلة البدائية من التراكم الرأسمالي . « وكان يتشكل بسرعة نظام بورجوازي جديد ، في جميع ميادين الحياة الاجتماعية ، وتظهر

عقلية جديدة وثقافة جديدة . وفي ذلك العهد بـدأ في فرنسا نمو المدن السريع ، كباريس وليون ومارسيليا والهافر ، وتكون اسطول قوي . وبالتدريج تشكلت شركات تجارية دولية وتنظمت حملات مسلحة احتلت سلسلة من المستعمرات . فنمت التجارة بسرعة . ومن ١٧٨٤ الى ١٧٨٨ ، بلغ حجم التبادل مليوناً واحد عشر الفاً وستمئة ليبرة ، اي اكثر بأربع مرات مما كان عليه خلال السنوات ١٧١٦ ـ ١٧٢٠ . وقد ساعد على النهوض التجاري عقد صلح اكس لاشابل (١٧٤٨) ومعاهدة باريس (١٧٦٣) . وكانت لتجارة الكتب دلالة خاصة . ففي عام ١٧٧٤ مثلا، ربحت تجارة المكاتب في فرنسا ٤٥ مليون فرنك مقابل ١٢ الى ١٣ مليوناً في انكلترا . وكانت فرنسا تملك ما يقرب من نصف احتياطي الذهب الاوروبي . ومع ذلك كانت لا تزال بلاداً زراعية . فان اكثرية السكان الساحقة كانت تعيش من الزراعة » . (ص ٣١٥ ـ ٣١٦) .

ليس ذلك بتحليل ، ولكنه مجرد سرد لبعض الوقائع المعروضة دونما صلة بينها ، والمصفوفة بعضها فوق بعض ، لا اكثر . ومن الطبيعي ان هذه الوقائع اذا اخذت «اساساً»، لا تستخرج منها ولا يمكن ان تستخرج اية ميزة للفلسفة

الفرنسية التي يبدو تطورها منفصلا عن الظروف التاريخية المرافقة .

لنأخذ على سبيل المثال ، ما يأتي بعد ذلك من وصف لظهور المثالية الالمانية . فقد كتب الكسندروف :

« في القرن الثامن عشر ، وفي النصف الاول من التاسع عشر ، كانت المانيا بلاداً متأخرة ذات هيكل سياسي رجعي مبني على الاقطاعية والقناعة والتنظيم الحرفي . وكان عدد سكان المدن ، في آخر القرن الثامن عشر ، لا يكاد يبلغ ٢٥ بالمئة وعدد الحرفيين لا يمثل سوى ٤ بالمئة ، من مجموع السكان . وكانت السخرة والجزية والشريعة الاقطاعية والامتيازات الحرفيةتمنع تطور العلاقات الراسمالية الناشئة . وكانت تسود البلاد فوق ذلك تجزئة سياسية خارقة للعادة » .

ان نسبة سكان المدن المئوية، في نظر الرفيق الكسندروف، يجب ان تبين وضع البلاد المتأخر ، والصفة الرجعية للهيكل السياسي والاجتماعي فيها . ولكن عدد سكان المدن في فرنسا، وفي العصر نفسه ، كان لا يساوي ١٠ بالمئة من مجموع السكان، مع ان فرنسا لم تكن بلاداً اقطاعية متأخرة مثل المانيا ، بل كانت مركز الثورة البورجوازية في اوروبا . وبالتالي ، فان نسبة سكان المدن المئوية لا تفسر بحد ذاتها شيئاً ، بل اكثر من ذلك ، اذ يجب ان نجد تفسيراً لها هي نفسها بواسطة

الظروف التاريخية الملموسة . ولنا فيما تقدم مثال آخر على استخدام المعلومات التاريخية استخداماً غير موفق، لتفسير نشوء وتطور هذا أو ذاك من الاشكال الفكرية .

وكتب الكسندروف فيما بعد :

« ان ابرز رجال الفكر في البورجوازية الالمانية في ذلك العصر : « كانت » وبعده « فيخته » و «هيغل» قد عبروا في فلسفاتهم المثالية عن عقلية البورجوازية الالمانية في ذلك العصر ، بشكل مجرد ، يحدده ضيق نطاق الواقع الالماني » .

فلنقارن هذا العرض الجاف ، البارد ، النزاع الى الموضوعية ، لوقائع لا تمكن من فهم أسباب نشوء المثالية الالمانية ، بالتحليل الماركسي لنفس الظروف ، المفرغ في قالب حي ونضالي يهز القارىء ويقنعه . اليكم كيف يصف انكلز الوضعية في المانيا :

« لقد كانت كتلة متعفنة سائرة في طريق التفكك ، لم يكن احد راضياً عن الحال . فالحرف والتجارة والصناعة والزراعة كانت قد تدنت حتى باتت في درجة تافهة لا تستحق الذكر . والفلاحون والتجار واصحاب الحرف كانوا يئنون تحت عبء مزدوج : حكومة سفاحة وحالة تجارية سيئة . والاشراف والامراء ، على الرغم من اعتصارهم رعاياهم ، كانوا يجدون ان مداخيلهم يجب الا تقل عن المصاريف المتزايدة باطراد . كل شيء

كان يسير سيراً سيئاً . وكان يسود البلاد استياء عام: فلم يكن ثمة تعليم ، ولا اية وسيلة للتأثير على نفوس الجماهير ، ولا حرية صحافة ، ولا رأي عام ، حتى ولا تجارة – ولو ضئيلة – مع البلدان الاخرى . في كل مكان دناءة وانانية . الشعب بأجمعه مشبع بروح من حب الكسب الحقير ، دنيئة وذليلة وباعثة على الاشمئزاز . كل شيء كان متعفناً متداعياً ، وعلى وشك الانهيار . ولم يكن هناك حتى ولا أمل بالتحسن ، لانه لم يكن في الشعب قوة قادرة على تكنيس الجثث المتفسخة والاوضاع البالية» . (ماركس وانكلز : المؤلفات – الجزء الخامس . ص٦ و٧)

قارنوا وصف انكلز هذا ، الوصف الواضح الثاقب المضبوط والمبني على اساس علمي عميق ، بوصف الكسندروف ، تروا الى اي حد يهمل الرفيق الكسندروف استعمال مواد جاهزة في الكنز الذي تركه لنا مؤسسا الماركسية ، ذلك الكنز الذي لا ينضب .

وهكذا فان المؤلف لم يؤد واجبه ، وما عرف ان يستخدم الطريقة المادية في عرض تاريخ الفلسفة . وهذا ينزع عن كتابه الصفة العلمية ويجعل منه ، الى حد كبير ، مجرد ترجمة لحياة الفلاسفة ولأنظمتهم ، ترجمة منفصلة عن الظروف التاريخية ويرى أنه قد خرق مبدأ المادية التاريخية الذي يعلمنا انه :

«يجب ان نحلل بالتفصيل شروط معيشة مختلف الفئات الاجتماعية قبل محاولتنا ان نستنتج منها المفاهيم السياسية والحقوقية والبديعية (الاسطيطيقية) والفلسفية

والدينية ، الخ ... المقابلة لها » . (انكلز : رسالة الى شميث ، في آب ١٨٩٠) .

ويصوغ المؤلف أيضا بشكل غامض وغير كاف اهداف تاريخ الفلسفة . فهو لا يشير في أي مكان من كتابه الى ان احدى المهمات الاساسية للفلسفةولتاريخها هيمتابعة تطوير الفلسفة من حيث هي علم ، واستنتاج قوانين جديدة، ووضع معروضاتها (Théses) على محك التجربة واقامة المعروضات الجديدة محل القديمة . والواقع ان المؤلف يبدأ بصورةعامة من مفهوم تعليمي في تاريخ الفلسفة ، ويجعل منه مبدأ من مبادىء الثقافة العامة ، وبذلك يسبغ على كل دراسة تاريخ الفلسفة صفة جامدة تأملية ، صفة أكاديمية . ومن الواضح ان هذا لا يتفق مع التعريف الماركسي اللينيني لتاريخ الفلسفة الذي يجب عليه ككل العلوم ان يتطور دون انقطاع، وان يتكامل ويغتني بالمعروضات الجديدة، نافضا عنه المعروضات التي شاخت .

ان المؤلف ، بمركزته انتباهه على الجهة المدرسية من موضوعه ، يضع بذلك حدوداً لتطور العلم ، كما لو كانت الماركسية اللينينية قد وصلت الى اوجها ولم يعد تطوير مذهبنا هو المهمة الاساسية . ان تفكيراً كهذا يتناقض مع روح الماركسية اللينينية بادخاله الفكرة الميتافيزيكية القائلة ان الماركسية مذهب تام ناجز . ان هذا التفكير لا يمكن ان يؤدي الا الى نضوب الحياة وشل روح البحث في الفلسفة .

ولم يكن نصيب المؤلف من النجاح اوفر عندما عالج تطور العلوم الطبيعية ، في حين لا يمكن عزل تاريخ الفلسفة عن فتوحات العلوم الطبيعية دون ان يفقد صفته العلمية . ونتيجة لذلك لا يساعد كتاب الرفيق الكسندروف على شرح شروط ولادة وتطور المادية العلمية التي نمت على القاعدة الصخرية لفتوحات العلوم الطبيعية المعاصرة .

ولقد وجد الكسندروف وسيلة لفصل تاريخ الفلسفة عن تاريخ العلوم الطبيعية . ومما يلفت النظر ان المؤلف ، في المدخل الذي عرضت فيه اسس الكتاب النظرية ، لايفوه بأية كلمة عن علاقات الفلسفة بالعلوم الطبيعية. وهو يلزم الصمت عن التاريخ الطبيعي حتى عندما يبدو ذلك الصمت امراً مستحيلا . فقد جاء في الصفحة ٩ : « لقد درس لينين في مؤلفاته ، وخصوصاً في كتابه «المادية والنقد التجريبي» نظرية المجتمع الماركسية من جميع وجوهها ، وقدمها خطوة كبيرة الى امام . » وبذلك وجد الكسندروف السبيل الى السكوت عن مسائل العلوم الطبيعية وارتباطها بالفلسفة في كلامه عن « المادية والنقد التجريبي » .

ان بحثه يبدو فيه الفقر المدقع والتجريد بشكل يفقأ العين ، حين يصف مستوى العلوم الطبيعية في هذه او تلك من المراحل . فهو يكتب عن العصور اليونانية القديمة انها

شاهدت « نشوء علوم الطبيعة » ، وعن مرحلة نهاية المدرسية (Scolastique) (القرن الثاني عشر والثالث عشر) فيقول : « انه ظهرت حينئذ اختراعات عديدة وتحسينات تكنيكية » (ص ١٢٠) .

وحتى في المواضع التي يحاول فيها حشر صيغ غير واضحة ، كالتي ذكرناها ، لا نجد سوى تعداد هزيل للاكتشافات ، وتتسرب الى تلك الصيغ اخطاء فاضحة تنم عن جهل ، يثير الدهشة ، بمسائل العلوم الفيزيائية والطبيعية . ما هي مثلا قيمة عرضه التطور العلمي في عصر النهضة حين يقول : «لقد بنى العالم غوريك مخضته الشهيرة لتفريغ الهواء ، فجاء البرهان العملي ، بادىء الامر ، بواسطة تجربة نصفي كرة ماغدبورغ على وجود الضغط الجوي الذي حل محل فكرة الفراغ . ولقد دار الجدل خلال العصور حول معرفة « مركز العالم » ، وهل هو سيارتنا ؟ ولكن ها هو كوبرنيك ثم غاليليو يدخلان حقل العلم . فقد بين هذا الاخير وجود بقع على الشمس وان هذه البقع تنتقل . وقد رأى في ذلك ، كما في اكتشافات اخرى اثباتاً لنظرية كوبرنيك عن تركيب النظام الشمسي ووجود الشمس في مركزه . وعلم البارومتر الناس كيف يتنبأون بالطقس ، وحل المجهر محل التخمينات عن حياة الاجسام المتناهية الصغر ، ولعب دورا كبيراً في تطور علم البيولوجيا . وساعدت البوصلة كولومبس بالتجربة على اثبات كروية سيارتنا » (ص ١٣٥) .

كل جملة تقريباً ، في هذا العرض ، سخافة . كيف يمكن للضغط الجوي أن يحل محل فكرة الفراغ ؟ هل ينفي وجود الجو وجود الفراغ ؟ بأي شكل تثبت حركة بقع الشمس نظرية كوبرنيك ؟

والقول بأن البارومتر ينبىء عن أحوال الطقس ، مسألة من أقل المسائل صفة علمية . فالناس ، مع الاسف ، لم يتعلموا حتى اليوم أن يتنبأوا بصورة مرضية عن أحوال الطقس ، كما تعلمون ذلك جميعا من تنبؤات مرصدنا الجوي .

لنتابع . هل يمكن للمجهر ان يحل محل نظام التخمينات؟ واخيرا ما هو « تركيب سيارتنا الكروي » ؟ كان يبدو حتى الآن ان شكل الارض وحده يمكن أن يكون كروياً ! ان الدرر التي من هذا النوع ليست قليلة في كتاب الكسندروف .

ولكن المؤلف يقع في أخطاء أساسية أكثر بكثير ، فيما يخص المبادىء نفسها . فهو يعتبر مثلا (ص ٣٥٧) أن الطريقة الديالكتيكية هيأتها فتوحات العلوم الطبيعية « منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر » . وهذا متناقض كل التناقض مع رأي انكلز الشهير القائل ان الطريقة الديالكتيكية قد تهيأت باكتشاف تركيب الجسم من خلايا ، ونظرية حفظ الطاقة وتحولاتها ، ونظرية داروين . وهذه الاكتشافات جميعها يعود تاريخها الى القرن التاسع عشر . وقد افسح المؤلف ، استنادا الى مفهوم خاطىء ، مكانا بارزا، كما رأيتم ، لتعداد اكتشافات القرن الثامن عشر ، وتكلم مطولا عن كالفاني ولابلاس وليبل . أما الاكتشافات

الكبرى الثلاثة التي تكلم عنها انكلز ، فيكتفي بصددهـا بأن يقول : « وهكذا مثلا ، وخلال حياة فورباخ نفسه، وضعت نظرية الخلية ونظرية تحول الطاقة ، وظهرت نظرية داروين عن منشأ الانواع بواسطة الاصطفاء الطبيعي » (ص ٤٢٧) .

تلك هي نقاط الضعف الاساسية في الكتاب . ولن اقف عند المآخذ الثانوية ، كما لا أريد أن أكرر الملاحظات النظرية والعلمية القيمة التي أبديت هنا .

والنتيجة هي ان الكتاب رديء ، ويجب ان يعاد النظر فيه من أساسه . ولكن اعادة سبك الكتاب تعني قبل كل شيء وجوب التغلب على المفاهيم الخاطئة والغامضة ، التي يتضح انها رائجة لدى فلاسفتنا بما فيهم القادة. ولذلك انتقل الآن الى المسألة الثانية ، مسألة الحالة في الجبهة الفلسفية.

– ٢ –

الحالة في الجبهة الفلسفية

اذا كان كتاب الرفيق الكسندروف قد تمكن من الفوز بموافقة اكثرية القادة بين المشتغلين في الفلسفة ، واذا امكن أن يقترح لجائزة ستالين ويوصي به ككتاب مدرسي اساسي، واذا أثار تعليقات تقريظية عديدة ، فذلك يعني بالطبع ان هناك شغيلة فلسفيين آخرين يشاطرون الرفيق الكسندروف أخطاءه ، كما يعني أيضا ان في جبهتنا النظرية أشياء ليست على ما يرام .

ان كون الكتاب لم يثر اقل احتجاج هام ، حتى وجب

تدخل اللجنة المركزية وتدخل الرفيق ستالين شخصيا لكشف القناع عن مآخذه ، يعني ان ليس هناك انتقاد وانتقاد ذاتي بولشفيان متطوران الى حد كاف ، في جبهتنا الفلسفية. وكان لا بد لانعدام المناقشات المثمرة والانتقاد والانتقاد الذاتي من أن ينعكس بشكل مريع على حالة العمل العلمي في الفلسفة . فمن المعلوم أن الانتاج الفلسفي غير كاف مطلقا من حيث الكمية ، وضعيف من حيث الكيفية ، والمواضيع والمقالات الفلسفية أشياء نادرة . وقد كثر الكلام هنا عن ضرورة اصدار مجلة فلسفية . وكما هو معلوم ، هناك شكوك حول ضرورة تأسيس مثل هذه المجلة ، ولم تنس بعد تجربة مجلة « تحت راية الماركسية » ، تلك التجربة المؤلمة . ويبدو لي أن الامكانيات الحالية لنشير الكتابات والمقالات المبتكرة تستخدم بصورة غير كافية أبدا .

قال الرفيق سفيتلوف هنا أن قراء مجلة «بولشفيك» لا يصلحون تماما للابحاث النظرية الاختصاصية . وانا أعتقد ان هذا الرأي خاطىء تماما . فمن الواضح أن هناك استصغارا لمستوى القراء الرفيع في بلادنا ، ولمتطلباتهم . ويرجع سبب ذلك ، فيما يبدو لي ، الى عدم الادراك بأن فلسفتنا ليست من امتيازات حلقة صغيرة من الفلاسفة المحترفين، وانها ملك لجميع المثقفين السوفياتيين . فلم يكن هناك أي شيء يؤخذ على تقاليد المجلات الروسية الطليعية في مرحلة ما قبل الثورة، تلك المجلات التي كانت تنشر الى جانب المقالات الادبية ابحاثا علمية بما فيها الدراسات الفلسفية. ولمجلتنا «بولشفيك» على كل حال ، قراء عددهم أكبر بكثير من قراء أية مجلة فلسفية، ولكن حصر عمل فلاسفتنا المبدع في مجلة متخصصة ، يهدد في نظري بتضييق قواعد عملنا الفلسفي. ارجو الا تعتقدوا بانني

عدو لهذه المجلة ، ولكن يبدو لي ان فقر مجلاتنا ، بما فيها مجلة «بولشفيك» ، في الدراسات الفلسفية، يدعونا الى البدء بالتغلب على هذا النقيض بواسطة نفس هذه المنشورات، التي اخذ يظهر فيها من وقت لآخر — وخصوصاً في المجلات — مقالات ذات صفة فلسفية ، لها أهمية علمية واجتماعية .

وهذا الفقر نفسه يخيم كذلك على مواضيع الدراسة في معهدنا الفلسفي الاساسي ، معهد الفلسفة التابع لاكاديمية العلوم ، وكذلك في صفوف الفلسفة في مختلف المعاهد .

في رأيي ان معهد الفلسفة يقدم صورة تبعث على الاسى . فهو لا يجمع شغيلة الفلسفة المقيمين في أطراف البلاد ، ولا صلة له بهم ، ولذلك ليست له صفة المؤسسة الوطنية ، ان فلاسفة المناطق متروكون لانفسهم ، وهم كما ترون، يشكلون قوة كبرى غير مستعملة ، مع الاسف، ومواضيع الدراسات، بما في ذلك الاطروحات المقدمة للحصول على الدرجات الجامعية، موجهة الى الماضي ، نحو المواضيع التاريخية السهلة والتي لا تعرض الى الخطر الا قليلا ، من طراز موضوع « هرطقة كوبرنيك ، امس واليوم » . ان ذلك يؤدي الى ما يشبه نهضة مدرسية (سكولاستيكية) . ومن هذه الوجهة نجد ان المناقشة التي جرت هنا حول هيغل ، هي على جانب من الغرابة . فالذين اشتركوا في هذه المناقشة اقتحموا ابوابا مفتوحة . لقد حلت مسألة هيغل منذ زمن طويل ، وليس هناك أي داع لطرقها من جديد . وليس هناك شيء قيل هنا الا وقد سبق التعليق عليه والحكم فيه . والمناقشة نفسها كانت مدرسية الى حد مؤسف ، وقليلة الثمرة ، بقدر

ما كانت قليلة الثمرة في وقتها مسألة معرفة ما اذا كان يجب عمل اشارة الصليب باصبعين أو بثلاث ، أو اذا كان يمكن لله أن يخلق حجرا لا يتمكن من رفعه ، أو اذا كانت أم الاله عذراء . أما المسائل الواقعية المعاصرة فتكاد لا تدرس . كل ذلك ، جملة ، ينذر باخطار أكبر بكثير مما تتصورون ، واكبر هذه الاخطار هو ان فريقا منكم قد ألف هذه النواحي الضعيفة واعتادها .

يجب السير بعلمنا الى امام

لسنا نشعر في العمل الفلسفي لابروح النضال ولا بالنفس البولشفي . وعلى هذا الضوء ، تأتي بعض الآراء الخاطئة في الكتاب كتعبير عن التأخر الملحوظ في سائر الجبهة الفلسفية. وبالتالي فهي لا تمثل عنصرا عرضيا منفردا ، بل تمثل كلا مجموعا . نحن نستعمل كثيرا هنا تعبير «الجبهة الفلسفية» . ولكن أين هي هذه الجبهة على الضبط ؟ انها لا تشبه أبدا الفكرة التي نتصورها عن جبهة من الجبهات . عندما يتكلم المرء عن جبهة فلسفية ، تتبادر الى ذهنه رأسا فكرة فصيلة منظمة من الفلاسفة ، من المناضلين المسلحين تسلحا تاما بالنظرية الماركسية ، تشن الهجوم على الافكار المعادية في الخارج وعلى بقايا العقلية البورجوازية في ادراك الناس السوفياتيين في داخل البلاد ، وتدفع علمنا دون كلل الى الامام ، وتسلح شغيلة المجتمع الاشتراكي بادراك أنهم يسيرون على الطريق الصواب ، وبالثقة بفوز قضيتنا النهائي ، ثقة قائمة على اساس علمي .

فهل تشبه جبهتنا الفلسفية جبهة حقيقية ؟ انها تذكر على

الارجح بماء راكد او بمخيم مضروب في مكان بعيد عن ساحة القتال . الساحة لا تزال غير محتلة ، والاشتباكات مع العدو لم تبدأ بعد بصورة عامة ، وليس يجري استكشاف للارض ، والاسلحة تصدأ ، والجنود يقاتلون على مسؤوليتهم ، أما القواد فهم اما يسكرون بالانتصارات الماضية ، أو يتباحثون فيما اذا كانت القوى كافية للهجوم ، وفيما اذا كان يتوجب طلب النجدة من الخارج ام لا ، أو يتشاحنون لمعرفة كم يمكن ان يتأخر الادراك عن الوجود ، لكي لا يبدو كبير التأخر .

بيد ان حزبنا بحاجة كبرى الى نهوض العمل الفلسفي . ان فلاسفتنا لا يستخلصون افكارا عامة من التغيرات السريعة التي تطرأ كل يوم على كياننا الاشتراكي ، ولا ينيرون هذه الافكار بضوء الديالكتيكية الماركسية . وليس من شأن ذلك الا أن يزيد في صعوبة تطور علمنا الفلسفي فيما بعد . وقد بلغ الوضع الى درجة اصبح معها تطور الفكر الفلسفي يجري ، الى حد كبير ، بمعزل عن فلاسفتنا المحترفين . وانه لأمر لا يمكن القبول به على الاطلاق .

من الواضح ان سبب التأخر على الجبهة الفلسفية ليس ناجما عن أي ظرف موضوعي . فالظروف الموضوعية هي الآن أكثر ملاءمة منها في أي وقت مضى ، والوقائع التي تنتظر التحليل والتعميم العلمي ، لا تحصى . وانما يجب ان نبحث عن أسباب التأخر في الميدان الذاتي . انها نفس الأسباب التي حسرت اللجنة المركزية القناع عنها حين حللت اسباب التأخر على القطاعات الاخرى من جبهة الفكر .

فكما تذكرون ، كانت بعض قرارات اللجنة المركزية

فيما يتعلق بالمسائل الفكرية ، موجهة ضد الشكلية وضد اللاسياسية ، في الادب والفن ، وضد اهمال المواضيع المعاصرة والارتماء في احضان الماضي ، وضد الاعجاب بما هو أجنبي ، وموجهة نحو موقف حزبي بولشفي وكفاحي في الادب والفن. ومن المعلوم أن فصائل عديدة من العاملين في جبهتنا الفكرية قد تمكنت حتى الآن من ان تستخلص لنفسها الاستنتاجات الضرورية من قرار اللجنة المركزية ، واحرزت في هذا المضمار نتائج هامة .

ولكن فلاسفتنا لا يزالون متأخرين . وواضح أنهم لا يلاحظون فقدان المبادىء والافكار في العمل الفلسفي ، ولا الازدراء بالمواضيع المعاصرة ، ولا الخضوع والتذلل امام الفلسفة البورجوازية . وواضح أنهم يعتبرون ان الانعطاف على الجبهة الفكرية لا يعنيهم . ومن الجلي الآن ، ان قلب هذه الخطة راسا على عقب قد أصبح ضروريا .

واذا كانت الجبهة الفلسفية لا تحتل الصف الاول من الجبهة الفكرية ، فان قسطا هاما من التبعة يقع على عاتق الرفيق الكسندروف . فليس لديه مع الاسف ، تلك البصيرة النقادة التي تمكنه من اكتشاف نقاط الضعف في عمله . وواضح انه يبالغ في تقدير قواه بدلا من ان يستند الى اختبار ومعرفة حلقة واسعة من الفلاسفة . بل اكثر من ذلك ، انه يستند كليا في عمله على حلقة ضيقة من المعاونين المباشرين والمعجبين بمواهبه . وبذلك أصبح النشاط الفلسفي محتكرا بشكل ما بين أيدي جماعة صغيرة من الفلاسفة بينما بقي قسم كبير من الفلاسفة وخصوصا فلاسفة المناطق ، بعيدين عن العمل القيادي .

وهكذا تقوضت العلاقات الطبيعية بين الفلاسفة .

ومن الجلي الآن ، ان القيـــام باعمال ، كتأليف كتاب مدرسي في مبادىء تاريخ الفلسفة ، عبء تنوء به قوى رجل واحد . وان الرفيق الكسندروف ، منذ ان بدأ عمله ، كان بحاجة الى الاستعانة بحلقةواسعةمن المؤلفين والاختصاصيين في المادية الديالكتيكية والماديةالتاريخية ، والمؤرخين ، وعلماء الطبيعة ، والاقتصاديين . ان الرفيق الكسندروف لم يختر الطريق الصالح حين رفض الاستناد الى حلقة واسعة من ذوي الاختصاص . يجب اصلاح هذا الخطأ . فمن الجلـي ان المعارف الفلسفية عندنا ملك لجماعة واسعة من الفلاسفة السوفياتيين . ان الطريقة التي تقوم على الاستعانة بحلقة واسعة من المؤلفين لوضع كتاب ما ، تطبق الآن تطبيقا تاما في تأليف كتاب في مبادىء الاقتصاد السياسي سيصدر قريبا ، وقد استعين في تأليفه بحلقات واسعة ، لا من الاقتصاديـين وحدهم ، بل كذلك من المؤرخين والفلاسفة . ومثل هذه الطريقة تبدو أضمن من غيرها بكثير ، وفيها تتجلـى فكرة أخرى هي توحيد جماعات مختلفة من العاملين في الحقل الفكري ، الذين لا تقوم بينهـم الآن علاقات تكفي لحـــل المسائل الكبرى التي لها اهمية علمية عامة ، بشكل يساعد على تنظيم العمل المتبادل بين العاملين في مختلف فروع الفكر وعلى التقدم دون سوق الامور بالعصا ودون صخب وضجيج، بل بصورة منظمة ومنسجمة ومنطقية ، وبأكثـر ما يمكـن من ضمانات النجاح .

الانتقاد والانتقـاد الذاتي

شكل خاص من النضال بين القديم والحديث

ترى اين هي جذور الاخطاء الذاتية التي وقع فيها عدد من قادة الجبهة الفلسفية ؟ لماذا استطاع بعض ممثلي الجيل القديم في مناقشاتنا هنا أن يأخذوا على بعض الشباب كونهم قد هرموا وشاخوا قبل الأوان ، وأعوزتهم الطاقة الهجومية وروح الكفاح ؟ ربما كان هناك جواب واحد ، لا جواب غيره، على هذا السؤال : اطلاع غير كاف على أسس الماركسية ــ اللينينية، ووجود بقايامن تأثير العقليةالبورجوازية . ويتجلى ذلك أيضا في ان عددا كبيرا من الشغيلة عندنا لم يفهموا بعد ان الماركسية اللينينية مذهب خلاق حي ، يتطور دون انقطاع ويغتني باستمرار بتجربة البناء الاشتراكي وفتوحات العلوم الطبيعية المعاصرة . ان استصغار هذه الناحية الثورية الحية من مذهبنا لا يمكن أن يؤدي الا الى خفض مستوى الفلسفة وتصغير الدور الذي تلعبه . أن انعدام الروح الكفاحيةوروح النضال،هو على الضبطالسبب فيمايشعربه بعض فلاسفتنا من خوف الاقدام على المسائل الجديدة ، المسائل المعاصرة ، لحل المشاكل التي يضعها التطبيقالعملييوميا أمامالفلاسفة، والتي منواجب الفلسفة الاجابة عليها . لقد حانالوقت لأن نقدم الى امام ، بجرأة اكبر،نظريةالمجتمعالسوفياتي ونظرية

الدولة السوفياتية ونظرية العلوم الطبيعية المعاصرة وعلم الاخلاق والعلم البديعي « الاسطيطيقي » . يجب ان ننتهي من هذا الجبن الغريب عن البولشفية . ان القبول بهدأة في تطور النظرية معناه اعجاف فلسفتنا وحرمانها من أثمن صفاتها المميزة. وهي قابليتها للتطور ، ومعناه تحويلها الى معتقد ميت مهزول.

ان مسألة الانتقاد البولشفي والانتقاد الذاتي ليست بالنسبة الى فلاسفتنا مسألة عملية فحسب، بل هي كذلك مسألة نظرية عميقة . فاذا كان المحتوى الداخلي لعملية التطور ، كما تعلمنا الديالكتيكية ، هو نضال الاضداد، النضال بين القديم والجديد بين ما يموت وما يولد ، بين ما انتهت حياته وما يتطور ، وجب على فلسفتنا السوفياتية ان تبين كيف يعمل هذا القانون الديالكتيكي في ظروف المجتمع الاشتراكي ، وما هي المميزات الخاصة التي تتجلى في تطبيقه . نحن نعرف ان هذا القانون يعمل في مجتمع منقسم الى طبقات غير عمله في المجتمع السوفياتي. هو ذا أوسع حقل للبحث العلمي ، ومع ذلك ، لم يتطـــرق اليه أي فيلسوف من فلاسفتنا حتى الآن . بيد ان حزبنا قد وجد واستخدم لمصلحة الاشتراكية منذ زمن بعيد ، هذا الشكل الخاص من اكتشاف متناقضات المجتمع الاشتراكي ومن تجاوز هذه المتناقضات « هذه المتناقضات موجودة ، والفلاسفة لا يريدون التحدث عنها ، جبنا » ، هذا الشكل الخاص للنضال بين القديم والجديد ، بين ما يموت وما يولد في مجتمعنا السوفياتي ، هذا الشكل الخاص الذي يدعى الانتقاد والانتقاد

الذاتي . ففي مجتمعنا السوفياتي ، حيث تصفى النزاعات الطبقية والنضال بين القديم والجديد،وحيث بالتالي يسير التطور من الادنى الى الاعلى ، لا بشكل نضال بين طبقات متنازعة ولا بشكل فواجع ، كما هو الحال في النظام الراسمالي ، بل بشكل الانتقاد والانتقاد الذاتي اللذين يبدوان بمثابة القوة المحركة الحقيقية لمجتمعنا واداة قوية بين يدي الحزب ، في هذا المجتمع لا جدال في ان الانتقاد والانتقاد الذاتي نوع جديد من الحركة ، ونمط جديد من التطور ، وقانون ديالكتيكي جديد .

كان ماركس يقول : ان الفلاسفة السابقين لم يزيدوا على ان فسروا العالم ، بينما كل المسألة اليوم هي مسألة تغييره. ولقد غيرنا العالم القديم وبنينا عالما جديدا . ولكن فلاسفتنا، مع الاسف ، لا يفسرون هذا العالم الجديد تفسيرا كافيا ، ولا يشتركون بقسط كاف في تغييره . لقد سمعنا هنا بضع محاولات ، ولنسمها نظرية ، لتفسير اسباب هذا التأخر . لقد قيل مثلا ان الفلاسفة أطالوا الوقوف كثيرا عند مرحلة التعليقات ، مما جعلهم لا ينتقلون في الوقت المناسب الى مرحلة الابحاث المحصورة بموضوع واحد. هذا التفسير حسن المظهر، ولكنه قليل الاقناع . فمن الواضح ان عمل الفيلسوف، عمله الخالق ، يجب ان يوضع في المقدمة ، ولكن ذلك لا يعني انه يجب الاقلاع عن اعمال التعليق والتفسير ، أو بعبارة احسن، عن اعمال تبسيط الفلسفة ونشرها، فشعبنا يحتاج الى ذلك ايضا .

يجب الاسراع في التعويض عن الوقت المضيع . ان المهمات لا تنتظر . فالانتظار الباهر الذي احرزته الاشتراكيـــة في الحرب الوطنية الكبرى كان في الوقت نفسه انتصاراً باهراً للماركسية ، وهو يظل كحسكة في حلق الاستعماريين . لقد انتقل مركز النضال ضد الماركسية اليوم الى اميركا وانكلترا ، واصبحت جميع قوى التجهيل والرجعية الآن في خدمة النضال ضد الماركسية . وها هي ادوات «ديموقراطية» القنبلة الذرية والدولار ، والدروع البالية دروع التجهيل والرجعية الاكليركية ونعني بها : الفاتيكان ، والنظرية العرقية ، القومية الجامحة والمثالية البالية ، الصحافة المباعة والفن البورجوازي المتفسخ ، كل هذه الادوات تشهر من جديد وتستخدم سلاحاً بيد الفلسفة البورجوازية . ولكن من الواضح ان هذه الادوات تنقصها القوة . ولذلك يجري اليوم تجنيد قوى احتياطية اشـــد انحطاطا ، تحت لواء النضال الفكري ضد الماركسية : كاللجوء الى الاشقياء «الفانغستر» والسماسرة والجواسيس والمجرمين العاديين . وسآخذ مثلا طازجا لا اتعمد اختياره . لقد نشرت الازفستيا منذ بضعة ايام ان مجلة « الازمنة العصرية » التي يديرها « الوجودي سارتر » تعلن عن كتاب الكاتب جـــان جينيه « يوميات سارق » باعتباره اكتشافاً جديداً . ويبدأ هذا الكتاب بالكلمات التالية : « الخيانة والسرقة واللواط ، تلك هي مواضيعي الاساسية . ان ثمة رابطة عضوية بيـــن تذوقي الخيانة واعمالي كسارق ومغامراتي الغرامية» . وواضح

ان المؤلف يعرف شغله : فروايات جان جينيه هذا تمثل وسط دعاية كبرى على المسارح الباريسية ، كما انه هو نفسه مدعو بالحاح للذهاب الى اميركا . تلك هي الكلمة الاخيرة للفلسفة البورجوازية .

ولكن تجربة انتصارنا على الفاشستية قد بينت الى اي مآزق يمكن أن نقود الفلسفات المثالية الشعوب بأسرها . وتبدو هذه الفلسفات اليوم بشكل جديد يثير الاشمئزاز الى حد بعيد، ويتراءى فيه كل عمق الانحطاط البورجوازي ودناءته وبشاعته . ان دخول السماسرة والمجرمين العاديين الى حظيرة الفلسفة معناه الواضح وقوفها على شفا الخراب والانحلال . ولكن هذه القوى لا تزال حية ، لا تزال قادرة على تسميم ضمير الجماهير . والعلم البورجوازي المعاصر يقدم للاكليركية وللايمانية حججا ومستندات جديدة يجب فضحها دونما شفقة. لنأخذ مثلا نظرية الفلكي الانكليزي ادنغتون حول «الثابتات» الفيزيائية في العالم ، التي تعود بنا رأساً الى صوفية الاعداد الفيثاغورية ، وتستخلص «ثابتات إساسية» للعالم من دساتير رياضية كالعدد الغامض ٦٦٦ الخ . والكثيرون من خلفاء اينشتاين يذهبون الى حد التكلم عن كمال العالم وعن حدوده في الزمان والمكان ، مطبقين نتائج ابحاث قوانين الحركة في ميدان ثابت ومحدود من الكون ، على الكون الذي لانهاية له ، من غير ان يفهموا سير المعرفة الديالكتيكي والصلات بين الحقيقة المطلقة والحقيقة النسبية . وقد توصل الفلكي ميلن الى أن « حسب » أن العالم قد خلق منذ ملياري سنة . يمكننا ان نطبق على هؤلاء العلماء الانكليز كلمة مواطنهم الكبير الفيلسوف بيكون القائل انهم يستخدمون عجز علمهم في الافتراء على الطبيعة .

وكذلك فان الخزعبلات الكانتية التي يقول بها الفيزيائيون الذريون المعاصرون ، تؤدي بهم الى استنتاجات « عن حرية ارادة » الالكترون (الكهرب) والى محاولات لتمثيل المادة كمجموعة موجات ليس الا ، والى غير ذلك من الشيطانيات .

ان في هذا الميدان لعملا فسيحاً امام فلاسفتنا الذين يجب عليهم أن يحللوا ويعملوا نتائج العلوم الطبيعية المعاصرة متذكرين امثولة انكلز القائلة ان المادية :

« يجب أن تأخذ مظهراً جديداً مع كل اكتشاف كبير جديد يفتتح مرحلة جديدة في العلوم الطبيعية »

(انكلز : لودفيك فورباخ) .

من سوانا ــ بلاد الماركسية الظافرة ــ من غير فلاسفتنا يجب ان يكون في راس النضال ضد العقلية البورجوازية السافلة الفاسدة ؟ من غيرنا يجب ان يصوب اليها الضربات القاتلة ؟

ظفر الماركسية

على رماد الحرب ، نشأت حكومات ديموقراطية جديدة ، ونمت حركة التحرر الوطني لدى الشعوب المستعمرة . لقد اصبحت الاشتراكية مسألة الساعة في حياة الشعوب . فمن سوانا ــ بلاد الاشتراكية الظافرة ــ من غير فلاسفتنا يجب ان

يساعد اصدقاءنا واخواننا في الخارج على انارة نضالهم من اجل مجتمع جديد بنور الاشتراكية العلمية؟ من سوانا يجب ان ينورهم ويسلحهم بسلاح الماركسية الفكري ؟

وفي بلادنا يجري ازدهار جبار في الاقتصاد والثقافة الاشتراكية . ونمو الوعي الاشتراكي عند الجماهير نمو ثابت الخطى يضع امام عملنا الفكري واجبات متعاظمة يوماً بعد يوم. ونشهد هجوماً تقوم به في نفس الوقت بقايا الراسمالية في ادراك الناس . فمن سوى الفيلسوم يجب ان يقود شغيلة الجبهة الفكرية ويطبق نظرية المعرفة الماركسية تطبيقاً شاملا على تعميم تجربة البناء الاشتراكي الهائلة وعلى حل القضايا الجديدة في الاشتراكية ؟

تجاه هذه المهمات الكبرى ، يمكن للمرء ان يتساءل: هل فلاسفتنا قادرون على ان يحملوا على عواتقهم اعباء جديدة ؟ وهل في مستودعات الذخيرة الفلسفية بارود ؟ او لم تضعف قوتنا الفلسفية ؟ وهل ملاكاتنا العلمية قادرة بقواها الخاصة على التغلب على نقاط الضعف في تطورها ، وعلى اعادة بناء عملها على قواعد جديدة ؟ لاحاجة للجواب على هذا السؤال. لقد دلت المناقشة الفلسفية على ان هذه القوى موجودة وانها هامة وقادرة على اكتشاف اغلاطها للتغلب عليها . وكل ما يجب عليها هو ان تزيد ثقتها بقواها الخاصة وان تجرب هذه القوى اكثر فأكثر في المعارك النشيطة، بوضعها المسائل اليومية العاجلة وحلها اياها . يجب ان ننتهي من الرخاوة في العمل،

وان نتخلص من الانسان القديم ، ونشتغل كما كان يشتغل ماركس وانكلز ولينين ، وكما يشتغل ستالين .

تذكرون كيف كان انكلز في زمانه يفرح ويسجل كحدث سياسي ذي اهمية كبرى ، اصدار نشرة ماركسية بالفي نسخة او ثلاثة آلاف . هذا الحدث ، ذو الاهمية الضئيلة في مقاييسنا ، كان انكلز يستنتج منه ان الفلسفة الماركسية قد امتدت لها جذور عميقة في الطبقة العاملة . فماذا نقول اذن عن تغلغل الماركسية في اوساط شعبنا الواسعة ، وما الذي كان يقوله ماركس وانكلز لو علما ان المؤلفات الفلسفية منتشرة لدينا بين الشعب بعشرات الآلاف من النسخ ؟ انه انتصار حقيقي للماركسية ، وشهادة حية على ان مذهب ماركس وانكلز ولينين وستالين ، هذا المذهب الكبير ، قد اصبح عندنا مذهب الامة باجمعها . وعلى هذه الأسس التي لا مثيل لها في العالم يجب ان تزدهر فلسفتنا . كونوا اذن جديرين بعصرنا ، بعصر لينين وستالين ، بعصر شعبنا ، شعبنا الظافر .

٢٤ حزيران سنة ١٩٤٧

في صيف ١٩٤٧ ، جرت في أنحاء الاتحـاد السوفياتي مناقشة واسعة النطاق حول قضايا الفلسفة ، أثارها ظهور كتاب في تاريخ الفلسفة الغربية وضعه ج.ف الكسندروف .

ونظراً لما تضمنه الكتاب المذكور من أخطاء وانحرافات وغموض،دعت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي «البولشفي» في الاتحاد السوفياتي ، عدداً كبيراً من الفلاسفة السوفياتيين الى مؤتمر عام لبحث القضايا الفلسفية وتوضيحها . وفي ٢٤ حزيران ١٩٤٧ ، القى الرفيق جدانوف ، سكرتير الحزب ، في المؤتمر ، خطاباً رائعاً نقدمه الى قراء اللغة العربية . وهو من أبرز ما كتبه الفقيد العظيم في شرح الفلسفة الماركسية .

التوزيع في الاقطـار العربية :

دار دمشق ـ دمشق ، شـارع بور سعيد

هاتف : ١١١٠٤٨ ـ ١١١٠٢٢

السعر ١٢٥ ق